يوم وقعت الواقعة ...!

الأستاذ علي الطنطاوي

أما رثاء الفقيد ، وبيان جلال الرزء فيه ، ومبلغ الحزن عليه ، فتلك أمور كبرت عن أن يحيط بها (نظم من الشعر أو نثر من الخطب) ، وبعُد منالها عن كاتب مثلي قصير القامة واليدين ، فليكن همي أن أروي (ما رأيت وما سمعت) ، ولقد رأيت عجباً وسمعت أعجب منه ، وشاهدت أحوالاً ربما ظنها القراء الذين هم في غير بغداد مبالغة من نسج الخيال ، ولكن الله يعلم وأهل بغداد يشهدون أن الذي أقوله حق كله ، وأني ما زدت فيه ولكن نقصت منه ، وأني لو ذهبت أزيد فيه ما استطعت ولا بقي للخيال بعد الذي كان مجال

* * *

والذي رأيت أني زرت من (الأعظمية) مبكراً على عادتي ، فلم أر على الطريق ما أنكر إلا حركة عند (البلاط) ما ألقيت إليها بالاً ، حتى إذا شارفت المدرسة (ومدرستنا في ظاهر بغداد قريبة من باب المعظم) رأيت طائفة من الطلاب مجتمعين يتهامسون ، ولكن الوجوه غير الوجوه ، فلما أبصروني أسرعوا إلي يسألوني عن (الحادثة) ، فقلت وأنا خالي البال : أي حادثة ؟ إني ما سمعت بعد بشيء !

قالوا : لقد شاع في البلد أن الملك ...

فاضطربت وتوقعت أن أسمع عنه نبأ لا يسر . ولقد أحببت الملك منذ شهور خلت حبًّا شديداً لم أكن أحبه من قبل مثله ، وصرت أرى فيه معقد الأمل وباب الرجاء ، فلما قال التلميذ ما قال خفق قلبي من توقع المكروه ، وحب الاستطلاع ، وروعة المفاجأة ، وما يصيب المرء في العادة في موقف مثل هذا ، وصحت بالولد أسأله : أن ما للملك ؟ وبالغتُ في الصياح حتى روّعتُه ، وأثرت أحزانه ، فقال متعثراً يجرّ الحروف من فيه جرًّا :

— يقولون إنه ... قد مات !

فقلت : أعوذ بالله ، اسكت ويحك ، إن هذا كذب ، فلا تنطق به ...

وأسرعت إلى المدرسة ، والطلاب معي ، وأنا أرجو وهم يرجون أن يكون الخبر كذباً . ونبت بعض الطلاب قائمين على الطريق ينتظرون مرور الملك كما يمرّ كل يوم . فلما بلغنا المدرسة وجدنا كل من كان فيها من مدرسين وطلاب قد سمعوا الذي سمعنا ، وهم بين مصدق ومكذب ، ومرت ساعة ونحن على هذه الحال من القلق نسأل كل آت فلا نلقى عنده جواباً ، ونستخبر الهاتف : (التلفون) فلا نسمع خبراً . ثم أبصرنا علم الثكنة العسكرية التي أمامنا قد نكس ، وجاءنا الأمر بتنكيس العلم ، وجمع الطلاب في غداة الغد للتشييع ...

فعلمنا أن الناعي قد صدق ، وأن الأمل قد خاب ! ! .

وخرج المدير وهو الرجل القوي المكتمل الرجولة ليعلن الأمر . فما تمالك نفسه أن بكى وهو ينعى لشباب المدرسة (الغربية المتوسطة) سيد شباب العرب . وما أمسك الطلاب أنفسهم أن يصيحوا : (وهم ثمانمائة شاب يعدون مثال النظام) صيحة واحدة ، وأن يبكوا بنحيب وعويل ، وأن يمزق بعضهم ثيابه ، وأن يغمى على بعض وما أكتم القارئ أني حسبت ذلك رياء وتصنعاً ، وكرهته أول الأمر ، واشمأزت منه نفسي ، ولكني ما لبثت أن أيقنت أنه حق وصدق ، وأن منشأه هذا الحب العجيب للملك الجندي ، وهذا الحزن البالغ على وفاته الفاجعة ...

وخرج الطلاب بعد ذلك ، وخرجت على الأثر . فما دنوت من (باب المعظم) حتى سمعت نواح النساء ونحيبهن ، ورأيت الميدان كله ممتلئاً بالناس ، يتدافعون ويستبقون إلى البلاط باكين مفجوعين . مشهد للحزن ما أحسب أن أروع منه يكون ؛ فخالفت الجماهير ، وقصدت شارع الرشيد ، فلم أبلغ (الصابونية) حتى رأيت مئات من النساء ، تحكي ثيابهن ومظاهرهن الغنى والحشمة ، وهن ينشدن شعراً عامياً ، أو شبه شعر ، ما فهمته ولكي تبينت فيه ذكر غازي وشبابه الغض ، وذكر الموت ... وكلما قلن بيتاً لطمن وجوههن بشدة ، وبكين بحرقة وألم ... فما رأهن أحد إلا بكى أشدّ بكاء ؛ ورأيت من بعد آلافاً من الناس قد حملوا شاعراً عامياً فهو يقرأ لهم شعراً كله تفجع وألم ، وهم يلطمون ويضربون صدورهم

أو يشيرون باللطم ، فلم أطق السير ولا الشهود فلت إلى المدرسة (الثانوية) وكانت خالية مقفرة ، وعلى بابها علمان متشحان بالسواد، فغادرتها أفتش عن أخي أنور العطار. فما هي حتى جمعني الله به. فقلت له: إن السير في شارع الرشيد مستحيل ، والصبر على رؤية هذه المواكب الباكية أشد استحالة ، وحسبنا ما في نفوسنا من الألم ، فهلمّ بنا إلى الدار (في الكرخ) فإنها أهدأ . ورأى ما رأيت ، فسرنا نؤم الجسر ، وكان اليوم عاصفاً مخيفاً ، والنهر مضطرباً مرعباً ؛ كأن الطبيعة قد روّعها من النبأ ما روّعنا ؛ ففقدت هي أيضاً اتزانها وهدوءها ، فما ظننا والله إلا أن الجسر منقطع بنا ، لما كان يضطرب ويرقص ، وتلعب الرياح والمياه بالعوامات التي يقوم عليها ، ولكن الله سلّم فبلغنا الكرخ ، وإذا بالكرخ قد نشرت الأعلام ، أعلام (السباية) السود ، ودقت طبول المأتم وخرج أهلوها على بكرة أبيهم ، مواكب مواكب : النساء ينحن ويلطمن الوجوه ، والرجال ينشدون ويضربون الصدور ، وقد تعرّوا وتكشفوا فعل المتهيئ للصراع، حتى رأيت الصدور وهي من احمرارها كأنما هي دامية. والأطفال، يالله ما فعل الأطفال! لقد تعروا مثلما فعل الرجال ، وطفقوا يضربون صدوراً علم الله أنها ما تحمل الضرب ولا تطيقه ... وكانت المواكب في كل شارع ، وفي كل زقاق . فكلما تركنا واحداً منها اصطدمنا بآخر ، حتى أزمعنا آخر الأمر أن نعود إلى جانب الرصافة من الجسر الآخر ، فما بلغناها حتى رأينا فيها ما أنسانا فعل أهل الكرخ ، وكان كل موكب يحمل صورة للملك الشاب مجللة بالسواد ، وينشد أشعاراً لم أحفظها ولكني فهمت منها كثيراً . فما فهمت مقالة قوم :

الله أكبرْ ياعربْ غازى انفقدْ من دارَهْ
واهتزتْ آركانْ السماء من صدمةِ السيَّارهْ

وقول قوم ما معناه : قولوا لفيصل في القبر يستقبل وليده ... في أشعار كثيرة هذا سبيلها ، ولعل القراء لا يدركون قوتها ووزنها ، لأني لم أحسن كتابتها ونقلها ، ولكنهم لو سمعوها من أفواه أصحابها ورأوا بكاءهم ، وشاهدوا صدورهم المحمرّة ، لعرفوا أيّ شيء هي ، ولعلموا أن بغداد تعرف كيف تفرح وكيف تغضب وكيف تحزن !

ومن أعجب ما شاهدت فتيات المدارس وهن يلطمن وجوهاً يؤذيها المسّ ، ويدميها النسيم ، لا يشفقن على أنفسهن ، ولا يفتأن ما سرن يبكين ويُبكين . وياليتني فهمت ما كنّ يتلون فإنه أشجى وأعجب مما كان الرجال يقولون !

* * *

وبقيت المدينة على هذه الحال إلى صباح اليوم التالى ، إلى ساعة التشييع التى أعلن العجز عن وصفها . فلما تم الدفن ، وأودع الثرى الملك الشاب الذى كان يفيض قوة وحياة ، وحوّمت الطيارات الوطنية تحمل شارات الحزن السود الطوال على الملك الطيّار ، وانطلقت المدافع تعلن انتهاء الدفن ؛ وأيقن الناس أن المصيبة قد تمت ، وأن الرجاء قد امّحى ، أفاقوا كمن يفيق من نومة مزعجة رأى فيها الحلم المروّع ، فيرى الواقع أشد إزعاجا وترويعاً ، فأسلموا الأمر إلى الله ، وصمتت هذه الألسن التى طالما أنشدت ورثت ، وتفجعت ، وجفت هذه الدموع التى طالما جرت وذرفت ، وانفضت هذه الجموع واجمة ما فيها من يتكلم أو ينبس ، وفي القلوب نيران تتأجج ، وبين الأضالع لهيب يستعر ، ولم تسكت آخر طلقة من طلقات المدافع التسع والتسعين ، حتى عمّ المدينة صمت عميق ، وغدت كأنها قبر واحد ، قبر غازى الملك الحبيب الذى أمّ الناس قصره قبل عشرة أيام مهنئين بالميلاد السعيد ، فانصرفوا الساعة من زيارة قبره الجديد ، مودعين حبيباً لن يروه إلى يوم القيامة ...

وهمس رجل ، فسار الهمس على كل لسان :

رحمة الله على غازى ، ولفيصل ابنه التوفيق والسعادة والحياة !

« بغداد » **على الطنطاوى**